الشعب الحبشى

للدكتور فؤاد حسنين

إذا تحدثت لقراء الرسالة عن الحبشة فإنما أتحدث عن بلاد تربطها بالشعوب العربية روابط عديدة أذكر منها على سبيل المثال إلى جانب الجنس واللغة ، الدين والجوار . الشعب الحبشى فى مجموعه سامي حامى ، ولفظ حبشة إن دل على شىء ، فإنما يدل على تلك القبائل التى استوطنت بلاد العرب الجنوبية ولعبت دوراً هاماً فى التاريخ المعينى السبأى . والتاريخ يحدثنا أن هذه القبائل ، أعنى قبائل حبشة ، هاجرت من بلاد العرب الجنوبية حوالى القرن العاشر قبل الميلاد واستوطنت الجزء الشمالى من بلاد الحبشة. فأطلق على ذلك الجزء اسمها . ومن ثم عمم العرب هذه التسمية فأطلقوها على هذه البلاد الواقعة بين خطى عرض ٤ و ١٥ شمال خط الاستواء . فسكان البلاد الذين أطلق اسمهم على تلك البلاد عرب وعرب خلص نزحوا من بلاد معين وسبأ فى عصر كان يطلق فيه بحق على بلاد اليمن بلاد العرب السعيدة حيث المدنية زاهرة والحضارة زاخرة . نزحت تلك القبائل إلى القارة السوداء فحملت معها كثيراً من معالم الحضارة العربية الجنوبية من دين وكتابة وعلم وأدب، فغزرت العقول كما غزرت البلاد، وأقامت هناك الدعائم الأولى للحضارة الأثيوبية وأزالت العقبات التى كانت تعترض تقدم العقل الأفريقى ومهدت للديانات السامية السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام بفتح تلك البلاد وتثبيت أقدامها . نزلت قبائل الحبشة ذلك الصقع الأفريقى فوجدت فيه عنصراً أفريقياً وآخر حامياً انفصل عن أرومته السامية الأصلية فامتزجت بهما وتكون من هذا المزيج الشعب الحبشى الحالى ، فهو إذاً شعب مركب من عنصر أفريقى قديم، وآخر حامى أو كوشى ، وثالث سامى . فنحن نرى من هذا أن سكان البلاد ينتمون إلى جنس هو جنسناء ولسانهم ، قديمه وحديثه ، ينتمى إلى الأسرة السامية الحامية التى تضم كثيراً من اللغات كالعربية والمصرية القديمة . وقد عرضت لإثبات هذه العلاقة بين الأحباش والساميين أسطورة حبشية قديمة تتصل عناصرها بقصة من قصص الكتاب المقدس والقرآن الكريم أعنى قصة ملكة سبأ وسليمان . فالأسطورة الحبشية ككثير من الأساطير تتحدث عن تنين عظيم كان يحكم البلاد قروناً عديدة وكان على جانب عظيم من البشاعة والشراهة إذ كان يفترس يومياً ما لا يقل عن عشرة بقرات ومثلها من الثيران وألف رأس من المعز ومائة من الضأن وكثيراً من طيور السماء إلى جانب ما يقدم له من العذارى ، فضاق السكان به ذرعاً فلجأوا إلى شخص اشتهر بالقوة يسمى (إنجابو) وفاوضوه فى أن يقتل التنين ويتولى هو الملك عليهم ، فقبل (إنجابو) وقتل التنين وتولى الملك وأنجب ابنة تسمى (ماكدا) وهى التى تعرف فى التاريخ باسم ملكة سبأ ودخلت ملكة سبأ فى حرم سليمان ، وفى طريقها إلى بلادها وضعت غلاماً أسمته (ابن حكيم) أو ابن سليمان ، وهو المعروف فى التاريخ الحبشى باسم (منليك الأول) مؤسس الأسرة السليمانية التى جلست على عرش الحبشة من (٩٥٠ ق . م إلى ١٨٥٥ م .) . فمن هذه الأسطورة نعرف العلاقة بين الفرعين الساميين من ناحية ، ونفهم الحكمة فى أن نجاشى الحبشة يعتبر نفسه أسد سبط يهوذا الذى رمز إليه فى العلم الحبشى بأسد متوج شاهراً بيمينه صولجان القوة والجبروت .

وكما أن بلاد الحبشة هى الملتقى لهذه العناصر السامية الحامية ، فهى الأرض التى نجد من بين سكانها الوثنيين واليهود بين والمسيحيين والمسلمين . فالوثنيون يدينون بوثنية تحمل إلى جانب طابعها الأفريقى طابعاً أسيوياً يمنياً ، فإلى اليوم ما زلنا نقرأ فى الكتب الحبشية والآثار الأدبية كثيراً من الألفاظ الوثنية القديمة مثل (محرم) إله الحرب ، و (عستر) إله السماء ، و (مدر) إله الأرض ، و (بحر) إله البحر . وإلى اليوم أيضاً ما زال أصحاب هذه الديانة يلعبون دوراً هاماً فى التنافس القائم بين المسيحية

والإسلام ، فمن بين العشرة ملايين نسمة التي يتكون منها الشعب الحبشي نجد نحو ثلاثة ملايين يدينون بالمسيحية التي أدخلها المبشرون البلاد في القرن الرابع الميلادي ، وأصبحت دين الأسرة الحاكمة الرسمي عام ٣٠٠ م عند ما اعتنقها الملك (عزانا) . أما البقية الباقية من السكان فكثرتها تدين بالإسلام ولا يقل معتنقوه عن خمسة ملايين نسمة . ومن الجدير بالذكر هنا أن قبائل كثيرة مسيحية ووثنية أخذت تسارع إلى الدخول في الإسلام في السنوات الأخيرة حتى أزعج ذلك كثيراً من الدول الأوربية فسارعت إلى مكافحته والوقوف في وجهه . وهذا التنافس بين الإسلام والمسيحية ليس حديث عهد في الحبشة . فالتاريخ الحبشي نفسه يحدثنا أن تاريخ المسيحية هناك عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح لتثبيت قدمها ومقاومة انتشار الإسلام . ولعل أهم عصر يتجلى لنا فيه هذا الصراع الديني هو الزمن الممتد ما بين عامي ١٥٤١ و ١٥٤٣ ؛ ففي ذلك الوقت ظهر قائد حبشي مسلم يسمى أحمد بن إبراهيم ، اشتهر ببسالته ومهارته الحربية ، فبعد أن كان جندياً بسيطاً أصبح أميراً على هرر . وفي عام ١٥٢٧ هاجم بقية الولايات الحبشية واستولى عليها وأخضعها لسلطان المسلمين ، وهرب الملك المسيحي (لبنا دنجل) واعتصم بالجبال ، ولو لا أنه استعان بالبرتغاليين الذين خفوا لمساعدته ما استطاعت المسيحية أن تعود ثانية إلى الحبشة . لكن هذا النفوذ الأوربي الذي استعانت به المسيحية في ذلك العصر عاد على الحبشة بأوخم العواقب ؛ فمنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر أخذت تعنى بعض الدول الأوربية بالحبشة وظهرت في عالم السياسة المسألة الحبشية التي كانت سبباً قوياً من أسباب انقسام أوربا إلى معسكرين عظيمين لن يحل السلام بلادها إلا بعد أن تنقوض أنظمة ، ويعم الخراب ، ويكثر الدمار . وبيان ذلك الاهتمام بالمسألة الحبشية أن أوربا منذ ذلك الحين أخذت تبعث الجمعيات التبشيرية إلى جانب بعض الرحالة والعلماء . وفي القرن السابع عشر أخذ المستشرقون الألمان يعنون بتاريخ الحبشة ولغتها . وفي القرن الثامن عشر نجد الرحالة والمستشرق الإنجليزي (بروس) يدخل الحبشة عن طريق مصر مكتشفاً منابع النيل . وفي عام ١٨٥٥ نجد أحد قطاع الطريق من الأحباش الذي كان راهباً وهرب من الدير يشن الغارات على سائر الأمراء وينتزع السلطان من أيديهم ويكلف (أبونا) أن يتوجه (نجوس نجست ذَ إيتيوبيا) أي ملك ملوك إيتيوبيا وتسمى باسم (تيودور الثاني) وأخذ يقوم بإصلاحات داخلية كبيرة ، فألغى الرق وحرم تعدد الزوجات وضم إليه إقليم (شوا) وأصبح ذلك الملك الذي كان في صباه فقيراً مشرداً والذي كان يسمى (كسا) والذي كانت أمه تبيع في أسواق (جندار) غنياً قوياً وحد الحبشة وأخذ يخلق من شعبه أمة قوية مهيبة الجانب ، فاصطدم ببعض الأجانب المقيمين في بلاده ، فأرسلت انجلترا عام ١٨٦٧ اللورد (نابيير) على رأس حملة تأديبية للحبشة استولت بدون كبير عناء على حصن (مجدلا) ، ولما أيقن الملك بالهزيمة انتحر ، فكان موته سبباً في تفكك الوحدة الحبشية أيام خلفه الملك (يوحنا الرابع) الذي توجه الإنجليز عام ١٨٧٢ . وفي أيامه قام ابن والي إقليم (شوا) وطالب بإعادة إقليمه إليه فمنحه وأصبح ملكاً عليه وتسمى باسم (منليك) ، ومن حسن حظه أن يوحنا قتل في حربه مع الدراويش عام ١٨٨٩ فأعلن (منليك) نفسه ملك ملوك وأخذ يعمل جهده لجمع صفوف أفراد شعبه فهاجمته إيطاليا فهزمها شر هزيمة في موقعة عدوة عام ١٨٩٦ . وقد كان منليك هذا محبوباً من شعبه ، حتى أنه يقسم به إلى اليوم ، كما تم في أيامه الخط الحديدي من جيبوتي إلى أديس أبابا . وفي عام ١٩٠٨ مرض مرضاً أقعده عن القيام بمهام الحكم ، فتنازل عن الملك لامرأته (تيتو) وتوفي هو في ١٢ ديسمبر عام ١٩١٣ ، وتولى الملك بعد وفاته حفيده (ليدو يسوع) وكان يميل إلى الإسلام فلما ظهرت ميوله إلى الإسلام والمسلمين اجتمعت عليه عوامل مختلفة خارجية وداخلية وخلعته وزجت به في السجن عام ١٩١٧ ، وتولت بعده